تجربة كمال أبو ديب

قد تكون تجربة كمال أبو ديب من أبرز التجارب النقدية التي رمت إلى استكناه جواهر النصوص السردية بالأداة البنيوية القائمة أساسا على استفزاز القارئ، ووصم الجهود النقدية العربية الحديثة التي تناولت النص السردي بالقصور، وليس ذلك فحسب بل اتهم الكتاب الفهم النقدي العربي بالعجز وبسوء التمثل للتقيدات البنيوية عامةً، مما دفع الناقد كمال أو ديب إلى القول: إن البنيوية ليست فكراً وإنما هي أداةٌ منهجية تمكن بما توافر لها من إمكانيات بحثية أن تجلو حقيقة النص وتوضح علاقاته المتشابكة بسائر الأنساق الثقافية والفكرية، أو أنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود. وبوصف البنيوية كما قال تثويراً جذرياً للفكر وعلاقته بالعالم، فإن إمكانية الإفادة منها تجوز حدود البحث الأدبي لتستحيل حركةً من أبرز حركات الفكر الحديث التي مكنت من رؤية العالم رؤيةً مختلفة، ولا سيما مع وجود مفاهيم كان من شأنها تغيير النظر إلى الكون والإنسان والفن، ويعني بذلك مفهوم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على العلاقات بين العناصر أو العلامات لا على العناصر أو العلامات نفسها.

وسعى كمال أبو ديب كما زعم إلى جعل البنيوية منهجاً فاعلاً يمكن من خلاله اكتناه جدلية الخفاء والتجلي في النصوص التراثية وكان يطمح إلى أكثر من ذلك حين أشار إلى أن منهجه يريد: "تغيير الفكر العربي في معاينة الثقافة والإنسان والشعر، ونقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة المتقصية الموضوعية الشمولية الجذرية في آن واحد: أي إلى فكر بنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة بل يطمح إلى تحديد المكونات الأساسية للظواهر في الثقافة والمجتمع والشعر".

ومؤدى ذلك أنه يريد تغير الفكر العربي الذي وجده قائماً على النظرة الفردية أو الشخصانية ليكون فكراً بنيوياً كما قال، والخديعة في هذا الزعم تتمثل بأمرين اثنين:

الأول: أن الباحث في صدر مؤلفه ينفي نفياً قاطعاً أن تكون البنيوية فكراً، وإنما هي أداة ومنهج للوصول إلى المعرفة. والواقع أن البنيوية ليست فكراً، وإنما نجمت عن مناخات فكرية محددة، لا بل إنها نشأت في مخاض فكري غربي يحدد أبو ديب بدايته بالقرن العشرين، وما من شك أن دعوته إلى إعادة البنيوية إلى حيز الفكر يفضي إلى شيء واحد وهو محاولة خلق مناخ فكري يتمخض عنه منهج بنيوي بسياقاته وملابساته الفكرية والاجتماعية والأدبية الغربية، وبتعبير آخر يدعو إلى التخلي عن جدلية التاريخ العربي للدخول في جدلية المعاصرة أو بالنهج الغربي لإدراك ما ينجم عن النصوص العربية من خفايا وتجليات، وهذا يستلزم أن نفهم نصوصنا العربية بأسلوب غربي محض، لأن العقل العربي ضل عن فهم ذاته بوسائله الخاصة، ولا مناص له من استعارة الأسلوب الغربي ليفهم ما نجم عنه من آثار، وهذا مؤدى الدعوى إلى فكر بنيوي سابق لمنهج بنيوي يحدد مكونات الثقافة والأدب بطريقة شمولية كلية معقدة كما أشار المؤلف.

والثاني: أن العقل العربي لم يحسن تمثل المنهج البنيوي مما دعا المؤلف إلى إعلان الثورة عليه لتصحيح مساره، لذا كان كتابه يحمل تصوراً ثورياً تأسيسياً، وفي الوقت ذاته عبر عن نيته في رفض منجزات العقل العربي؛ لأنه متخبط ترقيعي، وهو من ثم عاجز عن إدراك الجدلية التي تشد المكونات الأساسية للثقافة والمجتمع، والخلاصة التي انتهى إليها يمكن إيجازها بما يأتي:

أ- دراسة هاجس النزوع إلى الإبداع، في محاولة لتأسيس نظرية جديدة لبنية الموضوع ، ومن ثم خلق إجراءات جديدة لمعاينة الثقافة بنيوياً.

ب ـ الغوص وراء البنى العميقة القائمة على علاقات أو ثنائيات ضدية متعددة تيسر معاينة التاريخ العربي في شرائحه المختلفة، ورصد تحولات تلك البنى لتأسيس رؤية على المستوى السياسي خاصة لتبيان زيف الشعارات المطروحة في مسيرة الفكر العربي الذي بين أبو ديب من خلال مدارسة نصوص الشعر عجزها.

ج ـ إن الرؤية البنيوية عند أبي ديب وسيلة لفهم النص ومن ثم فهم العالم، ووعي العلاقات التي تنشأ عن مكونات الثقافة هو في الواقع وعي لمكونات البنية الاقتصادية والنفسية والاجتماعية.

إن المحاور الأساسية التي شكلت نواة الرؤية البنيوية عند كمال أبي ديب تنطلق من مقولة فحواها:

إن المنتج الإبداعي العربي مهما كان مستواه الفني ما هو إلا ترسبات ماضوية، ومشكلات مركبة، ونوازع دفينة وعلاقات مزيفة، وبنى متخلفة، وتصورات قاصرة، تعبر في مجموعها عن رحلة تيهٍ قطعها العقل العربي عبر عصوره في غفلة عن حاسة النقد الفاعل. ومشروعه الحداثوي الذي بشر به في مشروعه النقدي والمعتمد على التحليل البنيوي، بمقدوره أن يكشف العلاقات الخبيئة التي انطوت عليها النص العربي، ومن ثم معاينة العوالق السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتخلفة التي تجسدت بصورة مقنعة في هيكلية النص، في محاولة لإنهاء مرحلة التخلف والعزلة والتيه، لبلوغ حال الانصهار والذوبان المعرفي بزاد الغرب الأدبي والثقافي والفكري لتستعيد الأمة دورها الحيوي وتلحق بركب الحضارة الإنسانية.